الفصل الأول

في يوليو سنة 1946م بدأت المعركة

obeikandl.com

obeikandl.com

في يوليو سنة 1946م

بدات المعركة

يقول د. مصطفى الحفناوي: لأول مرة في حياتي سافرت خارج بلادي في شهر يوليو سنة 1946م، وكان ذلك بطريق البحر من الإسكندرية إلى مارسيليا، وكانت وجهتي لندن؛ تلبية لدعوة من شركة بريطانية كانت حكومة مصر قد عهدت إليها بمقاولة تعديل قناطر إسنا الواقعة في مدينة إسنا، بين الأقصر وأسوان، وكنت محاميًا، ومستشاراً قانونيًّا لهذه الشركة، ولم أكن أعلم أني كنت على موعد رتّبه القدر لألتقي بقضية قناة السويس، على ظهر إحدى السفن، في عرض البحر، وتم هذا اللقاء قبل يوم تأميم شركة قناة السويس، بعشر سنوات، فقد كانت رحلتي في شهر يوليو سنة 1946م، وأعلن المرحوم جمال عبد الناصر قرار تأميم الشركة ـ الذي كتبتُ مشروعه بخط يدي ـ في مساء 26 من يوليو سنة 1956م .

وهذا اللقاء التاريخي كانت له مقدمات، لا بد أن أعرض وقائعها بإيجاز.

يقول د. مصطفى الحفناوي: في 20 من نوفمبر سنة 1911م، ولدت في قرية صغيرة ملاصقة لمدينة الزقازيق بجمهورية مصر العربية، واسم هذه القرية "بنايوس"، وكان البيت الذي ولدت فيه متميزاً عن بقية بيوت القرية؛ إذ صممه مقاول إيطالي استعان به جدي المرحوم عبد الله الحفناوي؛ تحديًا لأهل القرية الذين نازعوه

obeikandi.com

أمام القضاء نزاعًا استمر سبع سنين في ملكية الأرض التي أقام عليها البناء، وهي أرض تخلفت عن دار ناظر القسم التي كان قد اشتراها، فلما حكم لصالحه من محكمة الاستئناف أعاد التصميم مستعينًا بالمقاول الإيطالي، وأنفق أموالاً طائلة، وكانت واجهة الدار تحفة غير مألوفة في القرى.. شرفات فسيحة تحتها أعمدة من رخام "تريستا" الفاخر، وغير ذلك من مظاهر الأبهة التي جعلت الناس في تلك القرية يتواضعون على تسمية هذه الدار "بالسرايا"، وكانت تطل على ميدان رحب، من الأملاك العامة التي يستعملها الفلاحون في مواسم درس القمح، وإذا كانت عمارة الدار قد أوحت إلى أبناء القرية بمعاملتها بالتجلة والاحترام، فإن هذا الاحترام قد أضفي تلقائيًّا على ساكنيها.

وفي السنوات الأولى من حياتي، كان مستوى معيشة أسرتي متمشيًا مع مظهر السرايا، وذلك أن والدي ـ رحمه الله ـ كان يمارس تجارة القطن، وهي صناعة ورثها عن أبيه، وكان في ريعان شبابه، وحقق أرباحًا خيالية في سنوات الحرب العالمية الأولى (1914ـ 1918م)، فتفتحت عيناي على حياة الترف والثراء الواسع، وكنتُ مدللاً باعتباري الابن البكر، ومن يدري.. لو استمرت هذه الحالة، لنشأتُ متبطلاً وعاطلاً بالوراثة، ولصرتُ عالة على المجتمع، ولكن الله سبحانه لم يشأ لي هذا المصير القبيح، فتدخلت عنايته، وأودى بثروة والدي بكاملها بانتهاء الحرب العالمية الأولى في نوفمبر سنة 1918م، وهبوط أسعار القطن إلى الحضيض، وكانت مصر يومئذ مزرعة قطنية مهمتها تغذية مصانع النسيج في لانكشير بأجود أنواع

القطن في العالم، وقد حددت سلطات الاحتلال البريطاني سعر القطن بعد توقف القتال مباشرة بأدنى الفئات، واستولت عليه عنوة واقتداراً بسعر خمسة جنيهات للقنطار بدلاً من خمسين جنيها، وهكذا حدث التلاعب المثير في بورصة مينا البصل، وأفلس تجار كثيرون، ومنهم والدي الذي جردته البنوك الأجنبية من كل ما يمتلك من عقار ومنقول، ولكنه استمات فاستخلص السرايا وأنقذها من أيدي المرابين، إلا أنه لم يبق له إلا مورد واحد هو حصة ضئيلة في ربع أعيان موقوفة لا تسمن ولا تغني من جوع. وتحولت السرايا إلى قلعة مظلمة شبيهة بالسجن، وكانت من قبل تعج بالزائرين من أولى القربى والأصدقاء، فقاطعوها جميعًا، وأطلق والدي لحيته، وتخلى عن الزي الأوروبي الأنيق، وعاش في ظلام منقطعًا للعبادة، ولا يعمل ولا يقابل كائنًا مَن كان. أما الابن البكر المدلل فقد ترك فريسة للحرمان من أي لون من ألوان الرعاية، فكنت أمشي كغيري من أبناء الفلاحين حافي القدمين ممزق الثياب رثًّا تعبث بي الأتربة أو أعبث بها. وقد بلغت من العمر سبع سنين، ولم أتعلم الحروف الأبجدية. وفي بعض الأوقات كنت أرافق الصبية إلى كتاب القرية حيث نفترش أرضًا رطبة، ونتعلم ما تيسر من آيات الذكر الحكيم، وكان سيدنا المعلم صاحب الكتاب عجوزاً قبيحًا مكفوفًا غليظ القلب، قبيح الصوت، قاسيًا لا يرحم الطفولة، مولعًا بالفلقة الموجعة، حيث يضرب القدمين لأتفه الأسباب، وكان لئيم الطبع خسيسًا يتقبل الرشاوى من الغلمان؛ كالخبز الساخن والبيض الطازج، فيعفيهم من الفلقة، والويل لمن لا يعطي سيدنا في الصباح، فكرهتُ عصاته وكتابه، وآثرت اللهو طوال النهار في أجران القرية، أو العمل في

الحقول في خدمة الدواب، والجري وراء الحمير، ومكافحة دودة القطن في موسمها، وغير ذلك من الأعمال الشاقة التي كانت تناط بالغلمان.

وفي تلك السن المبكرة استبد بي حزن عميق، لم أكن أعرف أسبابه وبواعثه، حزن من قسوة العيش وشظفه، ووطأة الفقر وشدة الحرمان، وكان ذلك يجذبني إلى مكانين، كان لهما في نفسي أعمق الأثر: إلى مسجد كان قد شيده جدي عبد الله، ورتب ضمن تركته وقفًا خيريًّا لعمارته، فكنت أختلف إلى المسجد في أوقات الصلاة، وخصوصًا في جوف الليل، وقبيل الفجر حيث كنت أندس بين صفوف الطاعنين في السن الذين يقيمون الليل في العبادة، وتلاوة أوراد السحر. وفي النهار كنت ألاحظ ندوة تنعقد في أوقات غير منتظمة بجوار كشك مصنوع من الخشب كان يستعمله رجل من شيوخ القرية يقال له "أبو رضوان" يبيع الفول والطعمية في الصباح الباكر وفي المساء، وهذا الرجل يجيد القراءة والكتابة، وكان يستحضر يوميًّا من الزقازيق الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، وإذا فرغ من عمله يجلس في المصطبة التي أقامها بجوار حانوته، ويقرأ الأنباء والمقالات بصوت مرتفع ليسمعه رواد الندوة من الفلاحين، وكانوا كثيرين، وكانت الأنباء مثيرة ومغرية بالتسابق إلى تلك الندوة الريفية.

في سنوات الحرب، كانت أخبار الميادين والمعارك الدامية على أشدها، وكان الشعور العام بقدر ما تعي ذاكرتي حتى الآن هو أن القتال كان يدور بين جيوش مولانا السلطان العثماني وحلفائه

obeikandi.com

الألمان، وكلهم أنصار الإسلام، وبين كفرة فجرة هم الإنجليز أعداء الله، ومَن حالفهم من فرنسيين وغيرهم، فكان الفلاحون من رواد الندوة يهللون ويكبرون حينما يسمعون من أبي رضوان أن الألمان ضُربوا، أو أن الإنجليز خسروا. وبعد الحرب أخذتْ مصطبة العم أبي رضوان طابعًا أهم؛ ذلك أن ثورة عارمة انطلقت في مصر من أقصاها إلى أقصاها هي ثورة سنة 1919م، وأن زعيمًا مصريًّا كبيرًا أوقد نيران هذه الثورة، واسمه "سعد" باختصار أو "سعد باشا زغلول" إذا أردت الاسم الكامل، وكانت أخبار الثورة وقتل الجنود الإنجليز برصاص المصريين في شوارع القاهرة، وقطع المواصلات وقضبان السكك الحديدية، ومظاهرات الطلبة، والاعتقالات وما إليها، ثم نفي البطل "سعد زغلول"، كان ذلك كله مادة مثيرة في الندوة، وكانت لها انعكاسات على الناشئين، فكنت مع جمهرة من الصبية ننتظم في المساء في شكل مظاهرة، وندق الطبول أو قطعًا من الصفائح البالية، ونردد الأناشيد مثل "يا عزيز يا عزيز ضربة تأخذ الإنجليز"، و"نموت وتحيا مصر"، و"يعيش سعد باشا، ويسقط السلطان الخائن" ـ سلطان مصر وقتئذ أحمد فؤاد ـ وهكذا.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وكان من عادة أبي رضوان بعد قراءة الصحف والمجلات التعليق على الأنباء، ورواية ذكرياته للحاضرين، وكان شديد الاعتزاز بأنه كان محاربًا قديمًا وجنديًّا في معركة التل الكبير في جيش أفندينا "عرابي".. هكذا كان يلقب عرابي، من قبيل التفخيم، واعتبار عرابي وقتئذ الحاكم الشرعي الوحيد للبلاد؛ لأن الخديوي محمد توفيق عميلٌ للإنجليز، وكافر

وخائن، وأذكر أني سمعته يقول إن عرابي لم ينهزم، وإنما الخيانة هي التي مكنت للإنجليز خيانة مشايخ البدور الذين اشترى الإنجليز ذمتهم بأكياس من الذهب تبين فيما بعد أنها حوت جنيهات ذهبية مزيفة، وخيانة الفرنساوي "دي لسبس" رئيس القنال الذي أقسم بشرفه وبالإنجيل لأفندينا عرابي بأنه لن يسمح للإنجليز بالنزول من القنال، ولكنه خان شرفه وفتح لهم القناة، ونقلهم، فطعنوا الجيش المصري من الخلف، حيث لم تكن له تحصينات في التل الكبير لأن عرابي كان مطمئنًا إلى وعد الفرنسي "دي لسبس". واستطرد أبو رضوان يروي ذكرياته عن مأساة حفر القناة، وعن الكرابيج والسخرة والوحشية التي استعملت ضد الفلاحين الذين كانت تقيد أيديهم بالأغلال، ويساقون إلى مناطق الحفر في الصحراء وكانوا يموتون آلافًا مؤلفة من فرط الحرمان من الماء والغذاء والدواء، وقد فشت الكوليرا والأوبئة، وقال عن نفسه إنه كان ممن سيقوا بالسياط إلى الحفر، ولكنه نجا بأعجوبة؛ وقد لمحني بين سامعيه فقال "وجدك الحاج عبد الله فر من السخرة ونجا من الموت بأعجوبة. لأن الله كتب له عمراً جديداً. . . "، وهزني حديثه عن جدي، فنقلته إلى والدي، وطلبت منه أن يروي لي الحقيقة، فقال: "نعم يا بني. . . جدك عبد الله ليس من أهل بنايوس قريتنا هذه، ولم يولد فيها، وإنما ولد في "حفنا" من قرى بلبيس، وتربى يتيمًا، ولكن جده هو شيخ الإسلام "محمد بن سالم الحفناوي"، وهو من نسل سيدنا رسول الله(*)، وكان جدك في

(*) من كتاب الجبرتي: روى الجبرتي في كتابه سيرة الشيخ الحفناوي أو الحفني، وأورد تسلسله من سيدنا علي زين العابدين ابن الإمام الحسين، وقال إنه خرج من حفنا غلامًا فقيراً، وتعلم العلم وعلمه في الأزهر الشريف، حتى

صباه محسوداً من أقربائه وذويه لأنه ورث ثروة لا بأس بها، ومن أجل اغتيالها وحرمانه من الميراث وشوا به إلى جهات الإدارة فقبضوا عليه ليسخر مع الأشداء من الفلاحين في حفر القناة، ولكنه في ظلام الليل غافل حراسه وفر مع اثنين من زملائه، وساروا على الأقدام أيامًا وليالي، وخشي أن يعود إلى حفنا فيعتقل من جديد، وواصل السير إلى أن وصل إلى الزقازيق. ولحسن حظه عرف رجلاً يونانيًّا كان يملك مصنعًا للسجاير فاشتغل عنده؛ ليحتمي بالحماية التي كان يتمتع بها اليوناني كغيره من الأجانب فلا يفتش مصنعه، ولا يقترب منه رجال الأمن، وما لبث بذكائه أن شارك هذا اليوناني في مصنعه وفي تجارة القطن، ثم مات اليوناني فانفرد بالتجارة، وحصل على ثروة لا بأس بها، واشترى أراضي زراعية في قرى مجاورة للزقازيق، ومنها قريتنا هذه التي شيد فيها السرايا، واستقر فيها.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وكان هذا أول حديث سمعته عن قناة السويس، قبل أن أتصل بقضيتها بسبب الحديث الذي سمعته أثناء رحلة يوليو سنة 1946م، على ظهر سفينة في البحر الأبيض المتوسط.

ويواصل الدكتور مصطفى الحفناوي: وكيف استطاع غلام فقير معدم من قرية اسمها "بنايوس" أن يسير شوطًا طويلاً فيصير محاميًا، ويوكل عن شركة بريطانية كبرى، تستقدمه إلى لندن، وتهيئ له

صار شيخ الإسلام في عهد علي بك الكبير في منتصف القرن الثامن عشر، وكتب الأستاذ محمد فريد أبو حديد في كتابه عن عمر مكرم سيرة الشيخ الحفناوي وقال إنه أسس مدرسة فكرية اسمها مدرسة الوعاظ، وآخر تلاميذها عمر مكرم.

أسباب رحلة يوليو سنة 1946م البحرية. . إنها الصدف المحضة التي لعبت الدور الأهم، وشكلت حياة هذا الفلاح ليصير محاميًا، ويتبنى القضية، ويصفي بيده ظلمًا قديمًا أصاب أهله ووطنه، ويهدم الصرح الاستعماري الذي أقامه فريدناند دي لسبس يوم أن فتح للغرب طريق النهب والسلب من آسيا وأفريقيا عبر قناة السويس.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وفي صيف سنة 1921م هبط على السرايا في بنايوس ضيوف أعزاء من بينهم مدرس في المدرسة الابتدائية الأميرية بالزقازيق اسمه "محمود عوض نجم" ـ رحمه الله ـ وقد حضر رفقة شقيقه ليعقد قران شقيقه بإحدى عماتي أخت أبي كانت عانسًا، وكانت تقاسمنا العيش. وفي هذه المناسبة أعدت وليمة قُدم فيها أفخر الطعام، وجرت العادة أن يوضع في مدَخل حجرة الطعام طست وإبريق من النحاس المطلي بالنيكل لغسل أيدي الضيوف قبل تناول الطعام، وكان دوري هو حمل الإبريق وصب الماء، ثم تقديم فوطة نظيفة للضيف كنت أحملها على كتفي، وبعد الطعام قمت بنفس الخدمة، وحينما جلس أمامي المدرس "محمود عوض نجم" جاذبني الحديث، وسألني أكثر من سؤال فأجبته إجابات أسعدته، فقال مخاطبًا والدي: يا سبحان الله، صدق الإمام علي إذ قال "لو كان الفقر رجلاً لقتلته". يا حاج عثمان لو أن خادمك هذا كان له أسرة تستطيع تعليمه لصار له شأن يذكر. . إنه غلام ذكي، بل متوقد الذكاء ومهذب.

ويتابع الدكتور مصطفى الحفناوي: وهنا قاطعه والدي بقوله: عفوًا يا محمود أفندي. . هذا ولدي مصطفى ابني البكر يخدمك أنت، وهذا واجبه مع الأعزاء الذين يشرفون دارنا. .

وعندئذ قال المدرس: ابنك أنت يا عثمان أفندي؟! ولماذا لم يرسل إلى المدًرسة حتى الآن؟ كما فهمت منه فهو يقول إنه لا يقرأ ولا يكتب!

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وكان حوار انتهى بقرار فوري بتعليمي الحروف الأبجدية ومبادئ القراءة والكتابة لإلحاقي بالمدرسة في مستهل العام الدراسي 1921ـ1922م، وأصر المدرس، وعاد لزيارتنا وعلمني، وألحقني بمدرسته بالفعل.

*****

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: تركت الفأس وحملت القلم، وكنت سعيداً غاية السعادة بتغيير مجرى حياتي، ولكني كنت أعاني من قسوة التلاميذ، وسخريتهم اللاذعة لي، فكانوا ينادونني بكلمة "يا فلاح" من باب التحقير والازدراء بسبب مظهري، بل كانوا يطاردونني كي لا أجالسهم في حجرة الطعام، وكنت أؤثر أن أفر من المطعم وأبقى حتى المساء خاوي البطن حتى أعود إلى بيتي بالقرية سيراً على الأقدام، لأتجنب الإهانة وجرح عواطفي. وجاء أول امتحان فاجتزته بعد انقضاء الأشهر الثلاثة الأولى. وذات يوم، وفي الحصة الأخيرة قال مدرس الحساب إنه سيعلن نتيجة الامتحان من قائمة كان يحملها، وناداني فنهضت واقفًا، وقال: مبروك، أنت الأول.. وسألته ما معنى الأول، فقال يعني البرنجي، يعني أنك حصلت على كبرى الدرجات في كل المواد، ومن الآن أنت الألفة؛ أي رئيس التلاميذ.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وفور انصرافه، انطلق أكثر

من أربعين تلميذًا كخلية نحل ثائرة وأحاطوا بي، وضربوني ضربًا مبرحًا، وأوقعوني أرضًا، وانهالوا على جسدي النحيل بأيديهم وأرجلهم، وأنقذني من أيديهم الفرّاش، ولكن كانت في وجهي كدمات، وفي سترتي تمزيق، وعدت إلى داري في المساء بتلك الحالة الرثة، وتعرضت لتأنيب شديد من والدي الذي ظن أني اشتركت في مشاجرة، ولم يترك لي فرصة الدفاع عن نفسي، فغلبني نوم عميق وحزن أشد عمقًا، وفي الصباح لم أستيقظ مبكرًا لأداء فريضة الصبح كعادتي، ولما أن أيقظتني المرحومة والدتي، أحست أني مريض فدعت والدي لفحصي، ولاحظ أن بياض عيني قد تحول إلى لون شديد الاصفرار، وحملت إلى الطبيب "عبد القادر بك مراد" صديق والدي بالزقازيق الذي قرر إني أصبت باحتقان شديد في الكبد، وأمر بالعلاج، وبقيت طريح الفراش ستة أسابيع متصلة، وبعد أن تماثلت للشفاء عدت إلى المدرسة، وفزعت أثناء الدرس الأول إذ حضر الساعي المخصص لخدمة ناظر المدرسة، وقال إن البك الناظر أمر بأن أتوجه إلى مكتبه على الفور، وخيل إلى أني مطلوب لأعاقب بسبب انقطاعي عن المدرسة أسابيع، وفي الطريق إلى ناظر المدرسة كنت أقرأ الفاتحة والتعاويذ، متوسلاً بأولياء الله؛ كي لا يقسو الناظر في ضربي، وهكذا كنت أتوجس خيفة من جميع الناس، ولشد ما أذهلني، أني فور دخولي من باب ناظر المدرسة "الأستاذ عبد الرحمن فخري" أنه نهض واقفًا ومد يده وصافحني بحرارة، وبحنان أبوي ظاهر وأمرني بالجلوس، كما أمر الخادم بإحضار عصير الليمون لي. وسألني عن صحتي، وقال إنه أسف أشد الأسف إذ منعني المرض من حضور الحفل الرياضي الذي وزع فيه الجوائز على المتفوقين، وأنه احتفظ لي

بمكافأتي، وأخرج من دولابه حافظة مصنوعة من جلد أسود من النوع الذي يحمله المحامون حينما يتوجهون إلى المحاكم لحفظ ملفاتهم، وقال هذه جائزتك يا مصطفى، حافظة محام، وراح يتكلم عن المحاماة، وإنها مهنة الشرف والكرامة، وأن المحامين هم الساسة والحكام، وأوصاني بمواصلة الاجتهاد لأصير من أعلام المحامين.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وشجعني حديثه على أن أستأذنه في إعفائي من منصب ألفة الفصل، وقصصت عليه ما فعله بي التلاميذ ساعة إعلان النتيجة، واكفهر وجهه وهو يسمعني ثم وقف، وحصل من دولابه على عصاة من الخيزران الرفيع الموجع للأيدي، وتأبط ذراعي قائلاً هيا بنا معا إلى الفصل لتأديب المعتدين.. وكانت حصة اللغة العربية، ونادى الشيخ "الدقي" مدرس اللغة العربية..

ـ قيام.. تعظيم سلام.. جلوس..

وساد صمت وخشوع، وسألني ناظر المدرسة: مَن مِن هؤلاء اعتدى عليك؟

قلت: إني لا أتهم أحدًا بالذات، ولكنهم جميعًا أطبقوا عليّ، وكانوا كالمجانين ينادون "يا فلاح، لن تكون أولنا"، وأعطيت وصفًا دقيقًا لما حدث. ومرّ الناظر بجميع الصفوف آمرًا كل واحد أن يبسط كفيه، وأعمل عصاته في أكف المعتدين من غير استثناء، واشتد العويل، وقبل الانصراف قال الناظر بصوت سمعه الجميع: "بابي مفتوح لك في كل لحظة يا مصطفى.. إن تعرض لك كائن مَن كان بأي أذى أو لفظ جارح، احضر إلى مكتبي، وسأعرف كيف أعلمهم

obeikandl.com

احترام الفلاح المتفوق عليهم جميعًا" . . ومرة أخرى، أمر المدرس بالتحية التقليدية . .

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وقطعت الطريق الطويل رغم المعوقات المادية، وأتممت الدراسة الابتدائية في سنة 1926م، ثم الدراسة الثانوية بمدرسة الزقازيق الثانوية في سنة 1931م بالقسم الأدبي .

وظلت حافظة المحامي تستبد بخيالي فاخترت كلية الحقوق، وعوقتني المصروفات الدراسية، ولكن تضحية شقيقتي الكبرى بحليها الذي حصلت عليه في مناسبة زواجها أنقذت موقفي، واشتدت وطأة الظروف المادية، فتركتُ كلية الحقوق في سنة 1933م، وقبلت وظيفة كتابية صغيرة من الدرجة الثامنة بوزارة الزراعة، ثم استقلت من هذه الوظيفة بعد عامين، وكنت قد شرعت في ممارسة مهنة الصحافة بمعونة فعالة من المرحوم الأستاذ عبد القادر حمزة باشا صاحب جريدة البلاغ، فاستقلت من وظيفتي واستأنفت دراسة الحقوق، واجتزت طريقًا كله أشواك إلى أن ظفرت بشهادة الليسانس، وكنت قد اقترنت بشريكة حياتي كريمة علي الغاياتي ـ رحمه الله ـ صاحب وظيفتي، وجريدة "منبر الشرق"، وكان لزوجتي أعظم الأثر في تحطيم الحواجز والوصول إلى الهدف، وممارستي صناعة المحاماة، والنجاح الخاطف الذي حققته في السنوات الأولى . واكتملت سعادتي بمولد الابن البكر المرحوم زياد مصطفى الحفناوي في 8 من ديسمبر سنة 1940م وكان آية من آيات الله سبحانه وتعالى .

*****

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وكانت الامتيازات الأجنبية قد ألغيت باتفاقية مونتريه في سنة 1937م، وتقرر تصفية المحاكم المختلطة في مرحلة انتقال، وبدأ الأجانب يعلمون محامين مصريين يعرفون لغات أجنبية، وكنتُ في طليعة هؤلاء، وفي مستهل سنة 1944م، أبلغني أحد موكلي واسمه "نيقولا إيجوروف" وهو من أصل روسي، وقد فر إلى مصر بعد الثورة الحمراء في بلاده، ومارس أعمال نقل الزلط والرمل باللوريات لحساب المقاولين، أبلغني أيجوروف هذا أن له صديقًا إنجليزيًّا اسمه "جرين هاف" حضر من لندن خصيصًا لدراسة عطاء أعلنت عنه وزارة الأشغال لتعديل قناطر إسنا، حضر هذا الإنجليزي بوصفه مهندسًا يمثل دارًا من كبريات دور الأشغال العامة بلندن، وهي شركة "سيرليندشي باركنسون" لدراسة المشروع وإعداد العطاء، وقال إن هذا المهندس الإنجليزي بحاجة إلى فتوى من أحد المحامين عن الأعباء المالية المترتبة على التشريعات الجديدة التي ظهرت في مصر بعد التحرر من الامتيازات الأجنبية بتشريعات الضرائب، وقوانين العمل وتأثيرها على فئات العقد؛ لتؤخذ في الاعتبار عند وضع هذه الفئات.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: قلت لموكلي الروسي "إيجوروف" إنه يبدو غريبًا أن يستشيرني إنجليزي وأنا معروف بكراهية الإنجليز ومكافحتهم من أجل استقلال بلادي. وأجابني بأن جميع الشركات التي تقدمت في هذه المناقصة العالمية شركات إنجليزية باستثناء شركات أحمد عبود، وأن هذه الشركات جميعًا تعامل مكتب المحامين الإنجليز الوحيد في القاهرة، مكتب "بيروت، وفاناروسيمز

مارشال" . ومادامت هذه الشركة بالذات تريد أن تخرج عن هذه القاعدة وتعامل محاميًا مصريًّا، فهل في هذا ما يتعارض مع وطنيتك وكرامتك، أم أن الوطنية تحتم إقصاء مكتب المحامي الإنجليزي وانتزاع هذا العمل من يده، بحيث إذا أسندت الأعمال لهذه الشركة يمكنك أن ترعى مصالح بلادك وحقوق مواطنيك؟

ويستطرد الدكتور مصطفى الحفناوي: واقتنعت بهذا الرأي، وأذنت لموكلي بأن يزورني في مكتبي صديقه الإنجليزي ليطلب الرأي القانوني، وزارني "فرانك جرينهاف" وكان فارع القامة مهذبًا، ينم مظهره وحديثه عن أصل عريق، ولما سألني الرأي طلبت منه أن يكتب الأسئلة، ويعود بعد أيام لاستلام رد مكتوب باللغة الإنجليزية، وعاد بعد أيام وسلمته مذكرة من ثلاث صفحات فيها الإجابة موجزة، لا لبس فيها، وسألني عن أتعابي فأقتضيت منه خمسين جنيهًا، وقبل انصرافه سألني عما إذا كان يتجاسر، ويدعوني لتناول طعام الغداء معه في اليوم التالي، وقبلت الدعوة والتقينا بمطعم "سانت جيمس" بشارع عماد الدين، وكان من أرقى مطاعم القاهرة، وكان معنا صديقه وصديقي "نيقولا إيجوروف" الروسي. وفي حديث المجاملة الذي دار بيننا سألته عما إذا كان يزور مصر لأول مرة فأجاب بالنفي، وأفاد أنه حضر مرات ومرات منذ سنة 1930م، وأن شركته تقدمت من قبل في ثلاث مناقصات كبرى هي: عملية تعلية خزان أسوان الثانية، وبناء قناطر أسيوط، وعملية قناطر محمد علي، وفي جميع هذه العمليات كانت شركته الأولى من حيث السعر ومع ذلك لم تظفر بأية عملية. وسألته عن السبب، فأجاب إجابة

فجة أغضبتني وأثارت نفسي، حتى هممت بالانسحاب، وكانت الإجابة كالآتي بالحرف الواحد:

فرانك جرينهاف : عجزنا عن رشوة الوزراء المصريين. . ونجح في ذلك منافسونا.

د. مصطفى: أنت إنجليزي، والمعروف عن الرجل الإنجليزي أنه مهذب، فكيف استبحت لنفسك أن تدعو محاميًا مصريًّا لتناول الغداء، كي تسمعه بأذنه سبك العلني لحكومة بلاده وللوزراء المصريين، وأنت تتهمهم بالرشوة؟! أنتم أيها الإنجليز أصل الداء ومصدر الفساد، وفي سبيل مصالحكم الاستعمارية تشترون الذمم والضمائر، وتسندون الفاسدين والمرتشين.

فرانك جرينهاف: سيدي المحامي إني سعيد بمعرفتك، وسأفرض نفسي عليك، ولن أخطو خطوة بغير مشورتك، ذلك لأنك أول مصري قابلني، ويستنكر الرشوة والفساد، أنت رجل شريف ولن أتركك.

د. مصطفى: أنت تمدحني لتسب وطني، وبدلاً من أن تتناول التهمة الوزراء والحكام، تقول إن المصريين لا يستنكرون الرشوة باستثناء محدثك، وهذا تعريض بأهل بلدي.

فرانك جرينهاف: إني أعتذر، وأسحب كلامي.

د. مصطفى: عليك أن تقدم أحسن الشروط الفنية وأقل الأسعار.

فرانك جرينهاف: وإذا فعلت هذا، وحرمت من العملية، وأسندت لمن يقدمون أسعاراً أعلى وشروطًا أسوأ كما حدث من قبل؟

د. مصطفى: لو حدث هذا، أعدك بالعمل على إسقاط الحكومة التي تتورط في هذا الإثم، وسأحاربها علانية، وبكل سلاح؛ حفاظًا على سمعة وطني.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: كنا وقتئذ في شهر فبراير سنة 1944م، وكانت الحرب العالمية الثانية في آخر مراحلها، وافترقنا متفاهمين، وعاد جرينهاف إلى بلاده، وأرسل مظروف عطاء شركته بالحقيبة الدبلوماسية الخاصة بالسفارة البريطانية، وفتحت المظاريف، فكان عطاء شركة "سير ليند سي باركنسون" أحسن العطاءات التي قدمت، ولم يسبقه إلا عطاء من شركة إنجليزية أخرى اسمها "بولنج" كان أقل من سعر باركنسون بمبلغ سبعين ألف جنيه، ولكن لجنة العطاءات استبعدته لانعدام الجدية، ومخالفة الشروط الشكلية، وعدم تقديم خطاب ضمان مصرفي، وغير ذلك مما سجلته لجنة العطاءات في محضرها، وعلى ذلك فإن احتمال النجاح قائم، وما لنا إلا أن نرقب من بعيد ما يتم في دراسة عطاءات الشركات المتنافسة.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وحدث تحول مباغت في العمليات الحربية في أوروبا، إذ تجاسر الحلفاء على غزو نورمانديا، واتخذت حكومة بريطانيا إجراءات من بينها منع خروج الإنجليز بصفة مؤقتة وسفرهم خارج بلادهم، وأبرقت وزارة الأشغال للشركة في لندن تسألها اسم وعنوان مَن يمثلها في القاهرة، وأبرقت الشركة كالآتي:

"وكّلنا الأستاذ مصطفى الحفناوي المحامي، ومكتبه بعمارة عزيز بحري حرف (ج) بميدان الإسماعيلية بالقاهرة، في التفاوض باسمنا

ونيابة عنا معكم، توقيع (شركة سير لند سي باركنسون)، ووصلتني برقية أخرى بالنص المتقدم، ودعاني وكيل وزارة الأشغال يومئذ المرحوم المهندس أحمد راغب بك للتحدث معي في هذا الأمر، وكان شديد الترحاب بشخصي، وقال لي إن هذه الشركة سنت سنة حميدة، فقد اختارت مصريًّا ومحاميًا، وهذا ضمان لنا، بيد أن الشركات الكبرى تختار مع الأسف سماسرة دخلاء ونصابين من أمثال " نجيب صروف " يحصلون منها على مبالغ ضخمة بدعوى أنها رشوة لنا ويضعون المبالغ في جيوبهم حينما يرسو العطاء على الشركة التي يوهمونها أننا مرتشون، وتعتقد الشركة الناجحة أنها اشترت ذمتنا، وحصلت على المقاولة لقاء رشوة كبيرة أخذها السمسار لنفسه، ونفقد سمعتنا ظلمًا وعدوانًا، وهذه المبادرة الصريحة من المهندس أحمد راغب أغرتني بأن أروي له ما جرى بيني وبين المهندس جرينهاف في مطعم سانت جيمس، وقد عرفت فيما بعد أن نجيب صروف الذي ذكره وكيل الأشغال بالاسم حصل على ثلاثين ألف جنيه باسم وزير الأشغال من شركة ماكدونالد جيبس في عملية قناطر محمد علي، وكان الوزير بريئًا وخالي الذهن من الرشوة المزعومة، وكان جو الفصل في عطاءات بملايين الجنيهات مشحونًا بهؤلاء المحتالين من الوسطاء الأجانب والدخلاء.

ويواصل الدكتور مصطفى الحفناوي: وبعد ثلاثة أشهر من تلك المقابلة دعاني المهندس أحمد راغب لزيارته مرة أخرى؛ ليبلغني أن اللجنة المشكلة برئاسته وعضوية المرحومين المهندسين أحمد راغب، مدير الخزانات والقناطر الكبرى، وعبد العظيم إسماعيل، المهندس المقيم للعملية، انتهت إلى قرار لمصلحة الشركة التي أمثلها باعتبار

شروطها أحسن الشروط من حيث السعر والفن الهندسي، وكذلك ثبت أن هذه الشركة أكثر خبرة وأحسن سمعة عالمية من منافسيها، وأفاد أن اللجنة رفعت تقريرها الفني إلى وزير الأشغال المهندس عثمان محرم، وبقي أن يرفع الوزير الأمر إلى مجلس الوزراء ليتخذ القرار الذي يراه، وطلب مني المرحوم أحمد راغب كتمان السر والانتظار، وأفاد أنه قطع السبيل على عبود باشا، وهو المعروف بصلاته وأساليبه الملتوية، وفي شهر يونيو فيما أذكر استدعاني راغب بك ليسألني عما إذا كانت الشركة قد منحتني توكيلاً مصدقًا عليه رسميًّا يخولني توقيع العقد نيابة عنها، فأفدته أنني لم أحصل على خلاف البرقية السالفة الذكر، وطلب مني أن أبرق عاجلاً باستدعاء جرينهاف، ولعل قيود السفر من لندن تكون قد خفت، ويرخص له بالسفر إلى القاهرة، وأوصاني محدثي بالكتمان للسر، ومؤداه أن القرار النهائي هو إسناد العملية لشركة "سير ليند سي باركنسون" بمبلغ يزيد قليلاً على المليونين ونصف مليون من الجنيهات، وفور انصرافي من وزارة الأشغال، بعد تلك المقابلة، توجهت إلى مكتب شركة "ماركوني" التي كانت مختصة بالبرقيات الخارجية، وأبرقت للشركة باسم "فرانك جرينهاف" هذه العبارة احضر فوراً لتوقيع العقد، وفي اليوم التالي تلقيت الرد، وفيه رقم الرحلة الجوية واسم الطائرة التي تحمل موكلي، وثاني يوم وصوله توجهت معه إلى وزارة الأشغال، حيث اجتمعنا بعض الوقت بالمرحوم الأستاذ محمد حسن العشماوي باشا، المستشار الملكي للوزارة وقتئذ؛ وذلك لمناقشة صيغة تحفظات أصرت الشركة على أن يتضمنها كتَّاب إسناد العملية إلى الشركة، وكذلك روجعت صيغة كتاب ضمان مصرفي بمبلغ مائة ألف جنيه قدمته الشركة. وفي اليوم التالي اجتمعنا بمكتب الوزير

المرحوم عثمان محرم، حيث تم توقيع العقد في حضور مندوبي الصحف ووكالات الأنباء. وفي الصباح التالي، وكان يوم جمعة فيما أذكره تحقيقًا، زارني في داري المهندس البريطاني "فرانك جرينهاف"، وكان وجهه يتلألأ فرحًا، وسألني عن النفقات التي تكبدتها حتى تم توقيع هذا العقد، فقلت له إنها بضعة جنيهات قيمة البرقيات التي أرسلتها إلى لندن، وضحك الرجل وقال: "هل وعدت كائنًا مَن كان بأي مبلغ"؟ ونهرته بشدة فضحك، وقال إنه يريد مداعبتي، ثم سألني: وما مقدار أتعابي؟ فطلبت منه ثلاثمائة جنيه، وقال إنه سيتركني لمدة نصف ساعة يزور خلالها البنك الأهلي بالقاهرة كي يعرف ما لديه من حسابه الجاري قبل أن يحرر لي شيكًا بالمبلغ الذي طلبته وهو مبلغ ثلاثمائة جنيه، فما هذا؟ وكان جوابه. .

"سيدي المحامي دعني أعترف لك إنه رغما عن نصائحك الغالية، التي ثبت لنا بالدليل العملي إنها صادقة، وإننا كنا تحت تأثير اعتقاد راسخ في دوائر الأشغال العامة بلندن إنه ما من عملية كبرى أسندت لشركة إلا كان مقابلها مبلغ رشوة لا يستهان به رغم ذلك، وتأثرًا بالشائعات في لندن أضفنا إلى الثمن الإجمالي للعملية مبلغ ستين ألفا من الجنيهات ليعطى لمن يطلبه، ولو أنك طلبته بعد توقيع العقد لتعطيه لمن تشاء دون تدخل من جانبنا، ودون سؤالك عن أسماء من يحصلون على هذا المبلغ لأعطيناك الستين ألف جنيه بلا إيصال، ومن غير تردد، ولكنك رجل شريف، وفّرت لنا هذا المال الذي كان سيضيع عبثًا، كما حدث لغيرنا من الشركات، وحفظت سمعة بلادك، وأعاهدك بأني سأكتب مقالاً بمجلة معهد المهندسين المدنيين في إنجلترا أبدد فيه أكذوبة الرشوة، وأفضح السماسرة المحتالين، ومن أجل ذلك اسمح لي أن أقدم لك تحت الحساب مؤقتًا هذا المبلغ

المتواضع ألف جنيه، وهذا أقل ما يمكنني أن أقدمه لك، وسأتصل اليوم تليفونيًّا برئيس الشركة بلندن ليفوضني في تحديد أتعابك، وسأزورك في مستهل الأسبوع القادم لأبلغك نتيجة المحادثة التليفونية" ، وعاد الرجل ومعه مشروع عقد بتعييني مستشاراً قانونيًّا لشركته في جميع بلاد الشرق الأوسط، لقاء أتعاب سنوية ثابتة قدرها مبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات، هذا عدا أتعاب عن كل قضية تكون الشركة فيها مدعية أو مدعى عليها، وأحدد الأتعاب في حينه في فواتير تصدر من مكتبي، وبالإضافة إلى ذلك تضع الشركة تحت تصرفي سيارة لتنقلاتي بالقاهرة وتتحمل نفقات السيارة والسائق والوقود والصيانة... إلخ، كما تتحمل نفقات أسفاري بداخل البلاد وخارجها، ووقّع كل منا هذا العقد، وقال الرجل الإنجليزي: إن هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي تختار فيها شركة بريطانية كبرى مصريًّا ليكون مستشارها القانوني، ومن أجل ذلك، ومع الإصرار في الدفاع عن المصالح الوطنية ورعاياتها، قمتُ بواجبي على نحو أكسبني ثقة واحترام القوم، وكنت الآمر الناهي، وكانت كلمتي لا تردّ، حتى إني قررت فصل وكيل الشركة بموقع العمل لأنه أهان مصريين، وأجبتُ إلى طلبي، ونفذ قراري في المرتين، ومازال بين مهندسي وزارة الأشغال القدامى أحياء يذكرون ذلك كله، وأني كنت أصل إلى مدينة إسنا أو أغادرها بالقطار فيصطف رجال الشركة وكبار مهندسيها الإنجليز مستقبلين أو مودعين، وكان بعض مواطني مع شديد الأسف يحسدونني لهذا التقدير والمكان المرموق!

*****

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: اضطررت لسرد الوقائع المتقدمة لأن بعض الأجهزة المغرضة كانت تثير الشكوك حينما

تصديت لقضية قناة السويس، وتتساءل: كيف تبنى هذه القضية محام قبل أن يكون مستشاراً قانونيًّا لشركة بريطانية في عملية كانت تنفذ لحساب الحكومة المصرية، وهذا هو التخبط الذي كانت تتعثر فيه المخابرات المصرية، ومن جهة أخرى أردت أن أبين الظروف التي ساقتني لرحلة يوليو سنة 1946م البحرية التي بدأ فيها اتصالي بقضية قناة السويس، ولو لم أوكل عن تلك الشركة ما تهيأت لي أسباب السفر للخارج، وتبني قضية قناة السويس، على النحو الذي جرى، والذي سأتحدث عنه في الفصول التالية.

*****

ويواصل الدكتور مصطفى الحفناوي: تمت المرحلة الأهم في عملية تعديل قناطر إسنا قبل فيضان النيل في سنة 1946م، وأزيحت السدود الترابية بمياه الفيضان، ونجحت الأعمال الهندسية التي نفذت في مواعيدها، وعلى خير مثال، وتلقى ممثل الشركة بالقاهرة "فرانك جرينهاف" من إدارة الشركة بلندن برقية أفادت أن مجلس إدارة الشركة يدعوني للاجتماع به في مقر الشركة بلندن لعرض المركز القانوني للعملية والمنازعات المطروحة على المحاكم من مقاولي الباطن وغيرهم، وقلت لصديقي إنني لم أسافر خارج بلادي من قبل، وإني لا أستطيع السفر جواً، ولا أقبله، فأفاد أن كابينة فاخرة بإحدى السفن عابرة البحر الأبيض المتوسط ستحجز لي، وأنه سيقابلني في ميناء مارسيليا مندوب من شركة كوك للسياحة، ثم أستقل القطار إلى باريس التي أقضي بها ثلاثة أيام، أستقل بعدها القطار المسمى بالسهم الذهبي إلى مدينة دوفر ومنها إلى لندن، حيث يستقبلني مندوبون من الشركة بمحطة فيكتوريا بلندن.

ويكمل الدكتور مصطفى الحفناوي : وتوجهت إلى الإسكندرية، وشغلت الجناح الذي حجز لي بالسفينة اليونانية "سيربنيا" ، وكانت تقطع الرحلة إلى مارسيليا في ستة أيام، وكانت رحلة ممتعة للغاية، واستمتعت بنسيم عليل، وصفاء لا عهد لي به من قبل، وكنت أقضي أوقاتًا طيبة على ظهر السفينة في القراءة أو تبادل الحديث مع مَن تعرفت بهم من المسافرين.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وذات صباح كنت أجلس في المكان الذي اعتدت الجلوس فيه، وكان يجلس على مقربة مني بعض الأوروبيين الذين التفوا في حلقة ليسمعوا رجلاً عجوزاً ثرثاراً، كان إنجليزيًّا عائدًا من الشرق الأقصى، وكان موضوع حديثه "قناة السويس" التي اجتازها في طريق عودته إلى أن وصل إلى بورسعيد ومنها استقل قطاراً إلى الإسكندرية ليواصل رحلته على متن "سيربينيا" . تحدث العجوز الإنجليزي عن قناة السويس ودورها في خدمة الملاحة العالمية، ونقل التجارة بين الشرق والغرب، ولكنه كان حديث مستعمر حاقد أبى إلا التعريض بوقاحة للبلد الذي يملك القناة وبشعبه المسالم، ووصفه بالتخلف، وأشار إلى القاعدة البريطانية التي أقيمت غرب القناة وعلى مقربة منها، وإلى ما تتحمله بريطانيا من نفقات باهظة لصالح الغرب، ولمنع مصر من أن تحاول في أي يوم أن تضع يدها على القناة، وهو الأمر الذي يستتبع توقف الملاحة، وتعريض التجارة العالمية لخطر شديد.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وكنت أسترق السمع وأتابع هذا الحديث الجارح لعواطفي حتى لم أتمكن من ضبط النفس إلى حد

الجمود والتبلد، فقاطعت المتكلم، وقلت له: إن نهاية امتياز شركة القناة قريبة في نوفمبر سنة 1968م، ويومئذ تتسلم مصر قناتها وتديرها بمعرفتها وتستغلها في خدمة التجارة العالمية، وفقد العجوز الإنجليزي وقاره وأرغى وأزبد، مؤكداً أن هذا لن يحدث، وأن العالم ليس من الغفلة والبلاهة بحيث يضع مصير التجارة بين الشرق والغرب في أيدي الجهلاء المتخلفين، وحدثت مشادة عنيفة كان لابد أن أستعمل فيها يدي وحذائي لولا انحياز الأجانب الذين كانوا يستمتعون بحديث الاستعماري العجوز، وكلهم من مصر كما فهمت من حديثهم لي بلغة عربية ركيكة، وكلهم كانوا خائنين لفضل مصر عليهم، فوقفوا في صف المعتدي الإنجليزي واتهموني بالتطفل إذ كنت أسترق السمع، وتدخلت في حديث لم يكن موجهاً لي بالذات، واضطررت للانسحاب وقد أوشكت أحشائي أن تتمزق وتجنبت مجالسة هؤلاء بقية أيام الرحلة.

ويصمت الدكتور قليلاً، ثم يواصل الدكتور مصطفى الحفناوي: ويومئذ أحسست بجرح عميق أصاب قلبي، ولكني ما كنت أعلم أن هذا الحادث كان تدبيراً ربانيًّا؛ كي أتصدى لقضية قناة السويس، وأتوفر على دراستها وجمع وثائقها التي أخفاها الاستعمار من كل مكان، وكي أفرض نفسي محامياً لبلادي في هذه القضية، ومسئولاً عنها، ومازلت أذكر هذا الحادث، وخلجات قلبي وانفعالاتي، ومازلت أذكر بعد انقضاء قرابة ثلاثين عاماً، أني كنت أمشي وحدي على ظهر السفينة ليلاً، وقلبي يحدثني: مستحيل أن يمد الامتياز.. إن الرصاصة التي قتلت بطرس غالي في سنة 1910م

يمكن أن تصير سيولاً منهمرة من الرصاص. لا بد أن ينتهي الامتياز، ولا بد أن أوجه علمي بالقانون، والصناعة التي أمارسها لهذا الهدف الإسلامي، كان هذا يتردد في جنبات قلبي، وكان الوقت بعد منتصف الليل، والمسافرون في مخادعهم، وما كنت أعلم أن قلبي كان يناجي جبار السماوات والأرض، وأنه سبحانه تجلى بقدرته، واستجاب لعبده الضعيف، لفرد لا حول له ولا قوة، تعقب شركة استعمار الغرب للشرق بالسند والدليل القانوني، فكانت نهايتها بعد ذلك التاريخ بعشر سنوات، هي سنوات الجهاد الصامت الذي أخذت نفسي به والذي انتهى بتأميم الشركة وتغيير مجرى التاريخ بجرة قلم من جمال عبد الناصر، الذي كان في علم الغيب، في شهر يوليو من عام 1956م.

obeikandl.com